

الحركة العلمية في بلاد الشام الطبيب مهذب الدين الدخوار ودوره في تأسيس المدرسة الدخوارية-انموذجا

The Scientific Movement in Bilad al-Sham The Physician Muhadhdhib al-Din al-Dakhwar and His Role in Founding al-Dakhwariyya School – A Case Study

أ.د. وسيم عبود عطية
جامعة الكوفة/كلية التربية للبنات

أ.م.د. بهاء موسى حبيب
جامعة الكوفة-كلية التربية للبنات

المقدمة

بلغت الحركة العلمية والطبية في بلاد الشام شوطاً كبيراً من التقدم والرفق في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي)، وهي مرحلة كانت من ازدهار المراحل التي وصلت إليها العلوم الطبية عند المسلمين من خلال النضج الفكري والعلمي للطب الإسلامي، بما قدمه الطبيب المسلم من دراسات ومصنفات في هذا المجال، إضافة إلى الممارسة العلمية لمهنة الطب من خلال مراكز الطب المختلفة التي انتشرت بشكل واسع في هذا العصر.

اتبع الأطباء في هذا العصر - وخصوصاً الطبيب مهذب الدين الدخوار - في تعليم الطب على عدة طرق ووسائل متنوعة شملت الجانب النظري والجانب العلمي، فكانت طرق الملازمة لأستاذة الطب أكثر الطرق انتشاراً في تعليم الطب في بلاد الشام إلى جانب المجالس الطبية المتخصصة التي يعقدها الأطباء في المدارس والبيمارستانات حيث كانت فيها المناقشات والمباحثات في المسائل الطبية، ووصف الأمراض، وطرق العلاج من خلال قراءة الكتب الطبية والنظر فيها.

تميزت الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام بظهور المدارس الطبية المتخصصة بتعليم الطب التي يمكن القول انها مما سبقت به بلاد الشام غيرها من البلدان في العالم الإسلامي، وهذا بدون ادنى شك أدى إلى تقدم الدراسات الطبية في بلاد الشام خاصة وتعليم الطب عند العرب المسلمين عموماً.

الكلمات المفتاحية: بلاد الشام-العلم-مذهب الدين-المدرسة-التعليم

Abstract:

The scientific and medical movement in Bilad al-Sham witnessed remarkable advancement and sophistication during the 6th and 7th centuries AH (12th and 13th centuries CE). This period represents one of the most flourishing eras in the history of Islamic medical sciences, marked by the intellectual and scientific maturity of Islamic medicine, as reflected in the studies and writings produced by Muslim physicians, as well as their practical engagement in the medical profession through various medical institutions that proliferated widely during this era.

Physicians of this period—most notably, Muhaddhib al-Din al-Dakwar—employed diverse methods in medical education that combined both theoretical and practical aspects. Among the most widespread approaches was the practice of apprenticeship with experienced medical scholars. In addition, specialized medical assemblies were held in schools and bimaristans (hospitals), where physicians conducted discussions and debates on medical issues, disease diagnosis, and treatment methods through reading and analyzing medical texts.

The scientific and medical movement in Bilad al-Sham was further distinguished by the emergence of specialized medical schools dedicated to the instruction of medicine—an achievement that

arguably placed Bilad al-Sham at the forefront of medical education in the Islamic world. This, without doubt, contributed significantly to the advancement of medical studies in the region in particular, and to the development of medical education among Arab Muslims in general.

Keywords: Bilad al-Sham, Science, Muhadhdhib al-Din, School, Education

المبحث الأول

السيرة الشخصية للطبيب مهذب الدين الدخوار

أولاً: -اسمه ونسبه :

هو مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم علي بن حامد الدمشقي (ابن ابي اصيبعه; p. 728, الصفدي, ٢٠٠٠م) (p. 18/233, شيخ الأطباء ورئيسهم بدمشق والديار المصرية) ابن شاکر الکتبي, د.ت; p. 2/315, ابن كثير, ٢٠١٠م, p. 15/180, والمعروف باسم الدخوار^١

^١ - الدخوار: هي صفة فاعلية مكونة من جزئين هما: دخ - وتعني الشهاب او النجم الساطع في السماء، والمقطع (وار) أداة تشبيه مثل يشبه، ومن ثم فإن الكلمة تعني الشهابي، او هو مثل النجم الساطع في السماء (محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ١٨١/٤)

ثانياً: -مولده واسرته:

كانت ولادته في سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م) (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٣/١٨)، من اسرة عرفت بالطب والكحالة، فكان ابوه كحالاً مشهوراً يقده العين إذا نزل فيها الماء (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٢٨)، وكذلك أخيه حامد بن علي الذي اشتغل بصناعة الكحل على احسن ما يكون (الذهبي، ١٩٩٨م، صفحة ٣١٨) وخاصة ان هذه الصناعة في ذلك الوقت ارتبطت بالظروف الصحية والبيئية، إذ ان امراض العيون كانت متفشية في ذلك الوقت، وكان من الطبيعي ان يتجه الأطباء لمعالجة العين مما يصيبها نظراً لما في ذلك من منافع جمة، وهذا ما أتاح لأطباء العيون ايضاً احرار تقديم علمي في مجال معرفة امراض العين وتشخيصها وعلاجها وفق ما انتهت إليه معرفتهم العلمية (محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ٢١).

ثالثاً: -تعليمه واهم شيوخه:

اجتهد مهذب الدين في تحصيل صناعة الطب من خلال ملازمة مشايخ الطب في عصره ويقرأ عليهم الكتب المقررة للدراسة لديهم (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٢٨)، فألتحق بمجلس الشيخ رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة ابن الحسن الرحبي (ت ٦٣١ هـ / ١٢٣٣م) (ابن العماد، ١٩٨٩م، صفحة ٢٥٨/٧) فدرس عليه، ثم لازمه بعد ذلك في مباشرة العلاج في البيمارستان الكبير^٢، فكانت صحبتته له بمثابة التدريب العملي له حتى ان ابن ابي اصيبعة يقول: (ولو اعتبر احد جمهور الأطباء بالشام لوجد إما ان يكون منهم من قرأ على الرحبي، او من قرأ على من قرأ عليه) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٦٧٣).

وكان من شيوخه في بلاد الشام ايضاً موفق الدين ابن المطران - الذي تميز بصناعة الطب، فقصد مجلسه كل محب للعلم وكان من بين اهم تلامذته مهذب الدين الدخوار فلازمه وتلمذ عليه واشتغل بصناعة الطب عليه حتى ((تميز وتمهر)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٢٨).

٢ - انشاءً نور الدين محمود عام (٥٤٩هـ / ١١٥٤م)، وكان يقع في الجانب الغربي من

الجامع الكبير بدمشق (عيسى، ١٩٣٩م، الصفحات ٢٠٦-٢١٠)

ثم قصد مجلس فخر الدين المارديني (ت ٥٩٤هـ / ١١٩٧م) حين قدم الى دمشق في سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) فلأزمه واشتغل عليه مدة مقامه بدمشق وقرأ عليه كتاب القانون لابن سينا وصححه معه (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٢٠٤) ، وظل مهذب الدين الدخوار بمعية فخر الدين المارديني حتى عام (٥٨٩هـ / ١١٩٣م). فلما عزم على الرحيل عز عليه ان يرحل استاذة وهو بعد لم ينهل من فيض علمه وغزير معرفته، ولم يكن قد اتم قراءة كتاب القانون عليه، فسأله البقاء معتقداً ان الامر يتعلق بتكاليف الحياة ومتطلباتها، وعرض عليه ان يدفع له نفقته، فقال له قوله المأثور: ((العلم لا يباع اصلاً، لأن من كان معي فإنني اشغله أين كنت)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٢٠٤).

رابعاً: - طلابه وتلامذته:

سعى عدد من طلبة العلم إلى معرفة فضل مهذب الدين وفهموا جوانب فكره ووقفوا على حقيقة رسالته من خلال تأثرهم بأفكاره وحرصهم على التواصل المعرفي به، وبهذا يشكلون حلقة من حلقات النمو المعرفي الذي يمكن من خلاله توظيف الأفكار من اجل عملية التواصل والاتصال المعرفي بين الأجيال العلمية، فكان من ابرزهم: أبو العباس ابن ابي الفضل اسعد بن حلوان (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) الذي كان احد طلابه النابهيين سريع الخاطر فصيح اللسان وله قدرة على الجدل والمناظرة (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٥٨) ، إضافة إلى انه كان فاضلاً في العلوم الأدبية مقرضاً للشعر ((وله معرفة بالعود، حسن الخط)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٥٨).

ومنهم ايضاً عز الدين ابن السويدي (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) فذكر عنه انه كان فاضلاً اديباً لاسيما في الطب، وله مشاركة جيدة في فنون (ابن تغرى بردى، ١٩٨٤م، صفحة ١٤٣/١)، إضافة إلى انه عد ((من اجل الأطباء قدراً وافضلهم ذكراً، واعرف مداواة، والطف مداراة، وانجح علاجاً، وأوضح منهاجاً)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٥٩) ، وقد عمل السويدي في البيمارستان النوري الكبير، ولبراعته وقدرته عمل مدرسا بالمدرسة الدخوارية (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٥٩) .

ومن تلامذته الصاحب نجم الدين ابن اللبودي (ت ٦٧٠ هـ / ١٢٧١م) الذي التحق بمجلس الدخوار العلمي بدمشق فأشتغل بصناعة الطب حتى انه وصف ب : ((اوجد في الصناعة الطبية، ندرة في العلوم الحكيمة، مفرط الذكاء، فصيح اللفظ، شديد الحرص في العلوم)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٦٦٣).

اما اشهر تلامذة مذهب الدين الدخوار فهو الطبيب العربي ابن النفيس^٣، والذي تعلم في كنف المدرسة الدخوارية وكان من ابرز اعلامها وحفظ تعاليم استاذة (ابن فضل الله العمري، ٢٠١٠م، صفحة ٣٥٧/٩)، الذي اوصاه ان يحول بيته ومكتبته - بعد مماته - إلى مدرسة للطب، وتم ذلك فعلاً، فأنشئت المدرسة التي لقبت بالدخوارية، وظلت هذه المدرسة تعمل زمناً طويلاً، وقام بالتدريس فيها طائفة من مشاهير الأطباء (مراد، ١٩٨٩م، صفحة ٢٩).

اما التلميذ الآخر فهو احمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي المعروف بأبن ابي اصيبعة (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) (اليونيني، ١٩٥٤م، صفحة ٤٣٧/٢) ، وكان ابوه وعمه طبيبان وكحالان مشهوران ببلاد الشام فأخذ عنهما في الطب والكحالة (ابن ابي اصيبعة، الصفحات ٦٣٦-٦٥٠)، واخذ ايضاً عن مذهب الدين الدخوار فقرأ عليه ومارس المهنة معه وشاهد المرضى مع جملة الطلبة (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣٢).

خامساً: - مؤلفاته:

صنف مذهب الدين الدخوار في صناعة الطب الكثير من المؤلفات والشروحات لعل من أهمها:

(١) اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي.

(٢) اختصار كتاب الأغاني الكبير لأبي الفرج الاصفهاني.

^٣ - هو علاء الدين ابن ابي الحزم القرشي الدمشقي، ولد في القرش قرب دمشق عام (٦٠٧ هـ / ١٢١٠م)، درس الطب في مصر والشام، ثم تولى رئاسة البيمارستان المنصوري، توفي عام (٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م) بالقاهرة. (ابن كثير، ٢٠١٠م، صفحة ٥٣١/١٥) (بن تغري بردي، ١٩٩٢م، صفحة ٣٧٧/٧)

٣) مقالة في الاستفراغ ألفها بدمشق في شهر (ربيع الأول ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م).

٤) كتاب الجينة في الطب.

٥) تعاليق ومسائل الطب وشكوك طبية ورد اجوبتها.

٦) كتاب الرد على شرح ابن ابي صادق لمسائل حنين بن إسحاق.

٧) مقالة يرد فيها على رسالة إلى الحجاج يوسف الإسرائيلي في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها (ابن ابي اصيبعة، الصفحات ٧٣٥-٧٣٦) (محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ٧٩).

٨) كتاب شرح مقدمة المعرفة لأبقراط (الحازمي، ٢٠٠٦ م، صفحة ٤١٧).

٩) كتاب ما يقع في الادوية المفردة من التصحيف (الحازمي، ٢٠٠٦ م، صفحة ٤١٧).

سادساً: - العلم والمعرفة عند مذهب الدين الدخوار:

كان مذهب الدين يخصص وقته للنسخ والتحصيل والدرس والقراءة أولاً (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣٢)، ثم يفرغ بعد ذلك لطلابه فيأذن لهم ((فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضوع يحتاج إلى فضل بحث أو فيه اشكال يحتاج إلى تحرير)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣٢).

اما طريقته في الدرس النظري فكانت ذات طابع مميز لأنه كان يدقق في كل ما بين يديه، ويحاول بقدر الإمكان ان يخرج نصاً خالياً من الأخطاء (محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ٤٨)، فكان ((لا يقرأ احداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرؤه ذلك التلميذ، ينظر فيه ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط امر بأصلحه)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣٢)، إضافة إلى هذا فإن الدخوار كان حريصاً على جودة النسخة ودقتها ((فكانت نسخة التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان اكثرها بخطه وكان ابداً لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة...)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣٢)، وبعد ان يخلو مجلسه وتتفض الجماعة يعود هو إلى نفسه

فيأكل شيئاً ثم يشرع بقية نهاره في الحفظ والدرس والمطالعة يسهر اكثر ليله في الاشتغال (ابن ابي اصيبعة، الصفحات ٧٣٢-٧٣٣) .

إضافة إلى هذا فإن الدخوار كان حريصاً على اجادة الخط والكتابة واتقانهما ((فكان خطه منسوباً، وكتب كتباً كثيرة بخطه)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٢٨) ، إضافة إلى انه اهتم بنسخ الكتب فذكر عنه بأنه ((نسخ كتباً كثيرة بخطه المنسوب، اكثر من مائة مجلد في الطب)) (ابن شاكر الكتبي، د.ت، صفحة ٣١٦/٢).

اما في البيمارستان فقد كان الطلاب يجتمعون حوله حين كان يتفقد المرضى فيعلمهم ويشرح لهم الحالة المرضية التي امامه عملياً، وقد اخذ عنه الطب عدد غير قليل من الأطباء، عدوا بعد ذلك من مشاهير أطباء بلاد الشام (ابن ابي اصيبعة، الصفحات ٦٠٢-٦٣٦-٦٧١-٦٧٦؛ محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ٤٧).

وكان الدخوار طبيباً عالماً خبيراً بكل ما جاء في كتب الطب القديمة وكان من اشد المعجبين بكتب جالينوس، وكان خبيراً بكل ما يقرأ عليه منها، وكانت هذه الكتب تروق له كثيراً، فإذا سمع شيئاً من كلام جالينوس في ذكر الامراض ومداواتها والأصول الطبية يقول ((هذا هو الطب)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣١).

وحرصاً منه على درس العلوم الحكيمة فقد توجه إلى سيف الدين الامدي^٤ ولازمه ودرس عليه علم الكلام والمنطق وعلم الأوائل (ابن تغرى بردى، ١٩٨٤م، صفحة ٢٨٥/٦)، فأتقن الدخوار هذه العلوم وحفظ ونسخ بعض كتب الامدي (محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ٢٥)، ثم لازم أبا الفضل الإسرائيلي المنجم ودرس عليه الهيئة والنجوم ((واقنتني من آلات النحاس التي يحتاج إليها في هذا الفن ما لم يكن عند غيره ومن الكتب شيئاً كثيراً جداً)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٧٣؛ محمد علي، ١٩٩٧، صفحة ٢٥).

٤ - هو سيف الدين ابي الحسن علي بن ابي علي بن محمد الامدي التغلبي، فقيه اصولي ولد في آمد من ديار بكر ونسب إليها عام (٥٥١هـ / ١١٥٦م)، له كثير من المؤلفات منها: غاية المرام في علم الكلام، ابرار الأفكار في أصول الدين، توفي عام (٦٣١هـ / ١٢٣٣م) في مدينة دمشق (الصفي، ٢٠٠٠م، الصفحات ٢١/٢٢٥-٢٣٠).

سابعاً : -وظائفه:

عمل مهذب الدين بالبيمارستان النوري الكبير، وكان ان استدعاه صاحب صفى الدين بن شكر - وزير الملك العادل ابي بكر بن أيوب، وطلب إليه ان يلتحق بخدمة العسكر مع الحكيم موفق الدين عبد العزيز في مقابل ثلاثين ديناراً ناصرية في الشهر، فرفض وطلب ان يكون راتبه مثل موفق الدين عبد العزيز الذي يتقاضى مائة دينار ورواتب مثلها، وقال للصاحب: ((انني اعرف منزلتي في العلم وما اخدم بدون مقررة)) وافترقا (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٢٩)، ولما مات موفق الدين عبد العزيز بعد شهر نتيجة قولنج عرض له، قال الملك العادل للوزير: ((كنت قد شكرت لنا حكيماً يقال له المهذب نزله على مقرر الموفق عبد العزيز)) ففعل الصاحب، وظل مهذب الدين في خدمة الملك العادل ولم تنزل منزلته تسمو عنده، وتترقى احواله، حتى صار جليسه وانيسه وصاحب مشورته (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٢٩).

واستطاع الدخوار معالجة الملك العادل لأكثر من مرة، وفي احدى المرات بينما كان الملك العادل بالشرق عام (٦١٠ هـ / ١٢١٣م) مرض مرضاً صعباً فتولى علاجه إلى ان برئ مما كان به، فأطلق له الملك العادل نحو سبعة آلاف دينار مصرية، وارسل اليه أولاد الملك العادل الذهب والخلع والبغال بأطواق الذهب (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣٠).

وكذا الحال ففي عام (٦١٢ هـ / ١٢١٥م) توجه الملك العادل إلى الديار المصرية واقام بالقاهرة، وفي هذا الوقت داهم الناس وباء عظيم فهلك خلق كثير، ومرض الملك الكامل ابن الملك العادل، ومرض كثير من خواصه فعالجه الدخوار بألطف علاج حتى برئ، فحصل له من الذهب والخلع والعطايا السنوية شيء كثير ((وكان مبلغ ما وصل إليه من الذهب نحو اثني عشر ألف دينار و اربع عشرة بغله بأطواق الذهب، والخلع الكثيرة من الثياب وغيرها)) (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣١).

وبعد ان تحقق للملك العادل حسن علاجه واجادته لصناعة الطب فولاه رئاسة أطباء بلاد الشام ومصر وجعل له حق امتحان الأطباء والكحالين والاذن لمن كان يرتضيه منهم في هذه الصناعة ويكتب له إجازة بذلك (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٣/١٨؛ الحازمي، ٢٠٠٦م، صفحة ٤١٦).

ثامناً: وفاته:

اصابت الشيخوخة وتقدم العمر نتيجة المكابدة والمعاناة مهذب الدين الدخوار فعرض له ثقل في لسانه واسترخاء (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٤/٨)، وابتلى بستة امراض متعكسة (ابن كثير، ٢٠١٠م، صفحة ١٨٠/١٥)، حتى بقي لا يكاد يفهم كلامه إلا بعسر، ومع هذا ظل مداوماً على التدريس لطلبه مجلسه العلمي، فكان الطلاب امامه ((فأذا استعصى معنى يجيب عنه بأيسر لفظ يدل على كثير من (الصفدي، المعاني، وفي أوقات يعسر عليه الكلام فيكتبه في لوح وتنتظره الجماعة)) (٢٣٤/٨، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٤/٨).

وقد اجتهد الدخوار في معالجة نفسه واستفراغ بدنه بعدة ادوية مسهلة، واستعمل المعاجين الحارة فعرضت له حمى قوية، فأضعفت قوته وزادت عليه (ابن شاعر الكتبي، د.ت، صفحة ٣١٦/٢)، إلى ان توفي في (صفر عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠م) (١٣٤٧م)، ١٩٩٦م، الصفحات ٣١٦/٢٢-٣١٧).

تاسعاً -محطات في حياة مهذب الدين الدخوار:

تعرض الدخوار إلى مواقف واحداث كثيرة في حياته بسبب شهرته الواسعة، فكان من الطبيعي ان يصبح موضع حسد من بعض الأشخاص ومنهم الشعراء فتعرض إلى الهجو من الشاعر ابن خروف^٥ الذي قال فيه (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٤/١٨):

٥- هو علي بن محمد بن يوسف أبو الحسن ابن خروف الاندلسي النحوي، ولد في عام (٥٢٥هـ / ١١٣٠م)، كان فاضلاً في علم العربية، وكان يتنقل في البلاد، ولم يتزوج ولا تسرى، وقد تغير عقله في آخر عمره، فكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس، توفي في عام (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م). (ياقوت الحموي، ١٩٩٣م، الصفحات ١٩٦٩-١٩٧٠؛ السيوطي، ١٩٧٩م، الصفحات ٢٣٠/٢-٢٠٤)

لا ترجون من الدخوار منفعة
فلو شقى علتية: العجب والعرجا
طبيب ان رأى المطبوب طلعتة
لا يرتجى صحة منها ولا فرجا
إذا تأمل في دستوره سحرأ
وقال: أين فلان؟ قيل: قد درجا
فشربه دخلت مما يركبـه
جسم العليل وروح منه قد خرجا

وقال فيه ايضاً (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٤/١٨) :

ان الاعيرج حاز الطب اجمعه
استغفر الله، إلا العلم والعملا
وليس يجهل شيئاً من غوامضه
إلا الدلائل والامراض والعللا
في حيله البرء قلت عنده حيل
بعد اجتهد ويدري للردى حिला
الروح يسكن جثمان العليل على
علاته فإذا ما طبة رحلا

وقال فيه ايضاً (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٢٣٥/١٨) :

طبع المذهب طبه
سيفاً، وصال على المهج
باب السلامة لا يرى
منه ولا باب الفرج

المبحث الثاني

تأسيس المدرسة الدخارية عام (١٢٢٢هـ / ١٢٤٤م)

أولاً: -مدارس الطب المتخصصة:

تأخر زمن نشأة المدارس الخاصة بتدريس الطب في العالم الإسلامي إلى ما يقارب القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على الرغم من النشاط الكبير الذي شهدته مدن العالم الإسلامي في تدريس هذا العلم، ولعل ذلك يرجع إلى ان الطب يعد من العلوم التجريبية التي لا بد ان تتوافق الدراسة النظرية فيها مع التطبيقية والتجريبية (المزيني، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، صفحة ٣٦٠)، ولذا ظلت البيمارستانات^٦ هي الأماكن الرئيسة لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق (البابا، ٢٠٠٩م، صفحة ١٥٧).

^٦ - كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بیمار) بمعنى مريض او عليل، و (ستان) بمعنى مكان او دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان، ويستعمل المغاربة لفظ بيمارستان بمعنى بيمارستان للأمراض العصبية فقط. (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٤٧؛ الزبيدي، ١٨٨٨م، صفحة ٤١٣٤/١) (فراج فضل، د.ت، صفحة ١٦٨)

ولكن مع مرور الزمن اوجدت أماكن أخرى لتدريس الطب عرفت بالمدارس الطبية - وهي مدارس متخصصة بمعنى أنها أنشئت خصيصاً لتدريس هذا العلم، ولم يكن لها طابع آخر غير ذلك، وكان لهذه المدارس أثر كبير في تطور الدراسات الطبية حيث كان يشرف عليها ويدرس فيها رؤساء الطب المتميزون بالصناعة الطبية، وكان يطبق فيها نظام تعليمي دقيق لا يختلف كثيراً عن النظم التعليمية المطبقة في المدارس العامة (المزيني، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، صفحة ٣٦٠).

ومما يذكر هنا أن هذه المدارس على الرغم من اعتمادها على الدراسات النظرية دون التطبيقية، وهي الدراسة التي تتطلبها الدراسات الطبية المعتمدة على النظر والتطبيق، فإن هذه المدارس كانت تنشأ غالباً قرب البيمارستانات المشهورة، وأحياناً يتم الارتباط بين المدرسة والبيمارستان حيث يكون الأخير ميداناً لتطبيق الدراسات الطبية النظرية التي كانت تتم في تلك المدارس، وهذا يتضح من قيام أحد البارعين بصناعة الطب بالإشراف على إحدى هذه المدارس مع كونه ناظراً لأحدى البيمارستانات المجاورة (المزيني، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، الصفحات ٣٦٠-٣٦١).

ثانياً: المدرسة الدخوارية في مدينه دمشق:

تنسب هذه المدرسة لمنشئها الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار عام (٦٢٢ هـ / ١٢٤٤ م) في بيته الخاص بدمشق، وأوقف عليها املاكاً كثيرة تدر عليها ما يمولها بما يحتاجه (ابن شداد، ١٩٥٦ م، صفحة ١/٢) (بدوي، ١٩٧٢ م، صفحة ٣٢٠)، وموقعها بالصاغة العتيقة (ابن شداد، ١٩٥٦ م، صفحة ١/٢) قرب الزاوية الخضراء قبلي الجامع الاموي (النعمي، ١٩٤٨ م، صفحة ١٢٧/٢) (العلموي، ١٩٤٧ م، صفحة ١٣٦)^٧، ومكانها اليوم دور للسكنى ولا يعلم زمن دمارها (كرد علي، ١٩٨٧ م، صفحة ١٠١/٦).

وقد عمل في هذه المدرسة عدد من شيوخ الطب بداية من واقفها الطبيب مهذب الدين الدخوار حيث انه ((وقف داره... وجعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب،

^٧ - وينكر ابن أبي أصيبعة بأن موقعها شرقي سوق المناخليين (ابن أبي أصيبعة، صفحة ٧٣٣)

وأنه وقف لها ضياعاً وعدة أماكن يستغل ما ينصرف في مصالحها)) (ابن أبي أصيبعة، صفحة ٧٣٣).

ثم درس بها من بعده الطبيب شرف الدين الرحبي^٨، وكان الدخوار قد أوصى ان يكون الرحبي مدرساً للدخوارية من بعده لما توسمه لديه من سعة في العلم وفهم في مسائل الطب (المزيني، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، صفحة ٣٦١).

ودرس بها اخوة الطبيب جمال الدين الرحبي^٩ من بعده (ابن أبي أصيبعة، صفحة ٦٨٢).

ثم تولى التدريس فيها من بعده بدر الدين محمد^{١٠} بن قاضي بعلبك (ابن شداد، ١٩٥٦م، صفحة ٢/١ ٢٦٥) (النعمي، ١٩٤٨م، صفحة ١٢٧/٢).

ثم عماد الدين الدنيسري^{١١} المتوفى عام (٦٨٦هـ / ١٢٨٧م) (النعمي، ١٩٤٨م، صفحة ٢/٢ ٢٠٣).

^٨ - هو أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، كان مولده بدمشق في عام (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، كانت له عناية بصناعة الطب وتحقيق مباحثها الكلية والجزئية، خدم بالبيمارستان النوري بدمشق، فدرس به مدة، وتوفي عام (٦٦٧هـ / ١٢٦٨م). (ابن أبي أصيبعة، الصفحات ٦٧٥-٦٨٢) (ابن أبي أصيبعة) (ابن كثير، ٢٠١٠م، صفحة ٤٢٢/١٥)

^٩ - هو جمال الدين عثمان بن يوسف ابن حيدرة، ولد بدمشق واشتغل بصناعة الطب عن والده وغيره من علماء دمشق واتقنها، توفي بالقاهرة عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) (أبو شامة، ١٩٧٤م، صفحة ٢٠٧)

^{١٠} - هو الحكيم بدر الدين المظفر ابن القاضي مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم قاضي بعلبك، نشأ بدمشق واشتغل بها في صناعة الطب، وخدم في بيمارستان الرقة، ولي الرئاسة في مدينة دمشق على جميع الأطباء والكحالين والجراحين سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، واستمر في ذلك حتى وفاته في عام (٦٧٠هـ / ١٢٧١م) (ابن أبي أصيبعة، الصفحات ٧٥١-٧٥٥)

ومن ثم تناوب في التدريس فيها جماعة من الأطباء الذين اشتهروا بصناعة الطب وكان لهم اثر كبير في التدريس بها منهم: الطبيب كمال الدين محمد بن عبد الرحيم بن مسلم (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م) (الصفدي، ٢٠٠٠م، صفحة ٣/٢٠٣).

والطبيب أبو اسحق عز الدين بن السويدي (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م)^{١٢} ، والطبيب جمال الدين احمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) (ابن العماد، ١٩٨٩م، صفحة ٥ / ٤٢٦)، والذي تولى رئاسة المدرسة الدخوارية لتقدمه في صناعة الطب على غيره (ابن كثير، ٢٠١٠م، صفحة ١٥ / ٥٨٩).

والطبيب امين الدين سليمان بن داود (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) (الذهبي، ١٩٩٨م، صفحة ٤ / ٩٤)، والطبيب جمال الدين محمد شهاب الدين احمد الكحال (ابن كثير، ٢٠١٠م، صفحة ١٦ / ٢٤٧).

حاول الاطباء في المدرسة الدخوارية معالجة الامراض المنتشرة في تلك الفترة مثل امراض الحمى، فاستعمل الأطباء المعاجين الحادة (البابا، ٢٠٠٩م، صفحة ١٥٩) ، كما واستخدموا ملح الطعام في صناعة الطب واستخدام المداواة والتقصي لمعالجة الامراض في اسرع وقت (ابن ابي اصيبعة، صفحة ٧٣١؛ بدران، ١٩٨٥م، الصفحات ١ / ٢٥٢-٢٥٣)، كما حاولوا علاج الامراض الحادة داخل المدرسة بعدة أنواع مختلفة من الادوية (الرازي، ٢٠٠٢م، صفحة ٢ / ٢٩٤) (البابا، ٢٠٠٩م، صفحة ١٥٩) .

١١ - هو عماد الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي تقي الدين عباس بن احمد بن عبيد الربيعي، كان مولده بمدينة دنيسر ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب وبرع فيها . (ابن شاکر الکتبی، د.ت، الصفحات ٣ / ٣٩٢-٣٩٣)

١٢ - هو إبراهيم بن محمد بن طرخان الانصاري الدمشقي، المعروف بالسويدي، حيث كان ابوه تاجراً من السويدا بحران، ولد بدمشق ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب حتى اتقنها، ثم عمل بالبيمارستان النوري . (ابن ابي اصيبعة، الصفحات ٧٥٩-٧٦١)

الخاتمة

من خلال البحث توصلت الدراسة بعض الاستنتاجات أهمها:

١) ساهم العلماء العرب المسلمين في بلاد الشام برفد الحضارة الإسلامية في مجال العلوم الطبية من خلال ظهور افاضل الأطباء واكابر الحكماء ولعل من ابرزهم الطبيب مذهب الدين الدخوار، وغيرهم من اعلام الطب عند المسلمين، وهذا مما يؤكد بأن هذه الفترة كانت تمثل وبدون نزاع العصر الذهبي للطب في بلاد الشام.

٢) تمكن العرب من إقامة مؤسسات تعليمية ومدارس طبية متخصصة ومستقلة في تعليم الطب في بلاد الشام، في نظرة تكاملية بين مرافق التعليم يبرز التعليم النظري في المساجد ومن ثم التعليم العملي داخل البيمارستانات في ظل نظام تعليمي منطقي يقوم كل مرفق بدوره التعليمي والمهني.

٣) اظهر البحث الصورة المشرقة لأبرز واهم المدارس الطبية في بلاد الشام الا وهي المدرسة الدخوارية، واهم الأطباء الذين تولوا رئاستها والاشراف عليها، والدور العلاجي والتعليمي الذي كانت تقوم به.

الهوامش والاحالات

المراجع

- إبراهيم بن محمد بن حمد المزيني. (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م). لمدارس الطبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية. مجلة جامعة محمد بن سعود الإسلامية العدد ١٣ .
- أبو العباس موفق الدين احمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م) ابن ابي اصيبعة. (بلا تاريخ). عيون الانباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: د. نزار رض. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتاكي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) ابن تغرى بردى. (١٩٨٤ م). المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، حققه وضع حواشيه: د. محمد محمد امين. القاهرة: مطبعة دار الكتب.
- أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتاكي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) ابن تغرى بردى. (١٩٨٤ م). المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، حققه وضع حواشيه: د. محمد محمد امين. القاهرة: مطبعة دار الكتب.
- أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتاكي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) بن تغرى بردى. (١٩٩٢ م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م) الرازي. (٢٠٠٢ م). الحاوي في الطب، تحقيق: هيثم طعيمة. بيروت: دار احياء التراث العربي.
- احمد بدوي. (١٩٧٢ م). الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- احمد عيسى. (١٩٣٩ م). تاريخ البيمارستانات في الإسلام. دمشق: المطبعة الهاشمية.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م). (١٩٩٦ م). سير اعلام النبلاء، حققه: د. بشار عواد معروف. د. محي هلال السرحان ط ١١ . بيروت: مؤسسة الرسالة.
- بركات محمد مراد. (١٩٨٩ م). ابن النفيس واتجاهات الطب العربي العلمية. الجزائر.
- جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر محمد (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) السيوطي. (١٩٧٩ م). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ . القاهرة: دار الفكر.
- شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) الذهبي. (١٩٩٨ م). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي.

شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ياقوت الحموي. (١٩٩٣م). معجم الادباء تحقيق: د. احسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) أبو شامة. (١٩٧٤م). تراجم رجال القرنين السادس والسابع. المعروف بالذيل على الروضتين، بيروت: نشر: عزت العطار الحسيني ط٢، دار الجيل.

شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحى بن احمد الدمشقي ابن العماد. (١٩٨٩م). شذرات الذهب في اخبار من ذهب حقه وعلق عليه: محمود الارناؤوط. دمشق: دار ابن كثير.

شهاب الدين احمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ابن فضل الله العمري. (٢٠١٠م). مسالك الابصار في ممالك الامصار، حقه: كامل سلمان الجبوري. بيروت: دار الكتب العلمية.

صلاح الدين خليل بن ابيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) الصفي. (٢٠٠٠م). الوافي بالوفيات تحقيق: احمد الارناؤوط - وتركي مصطفى. بيروت: دار احياء التراث العربي.

عبد الباسط بن موسى الدمشقي (ت ٩٨١هـ/١٥٧٣م) العلوي. (١٩٤٧م). مختصر تنبيه الطالب وارشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس حقيق: صلاح الدين المنجد. دمشق: مطبعة الترقى.

عبد القادر بدران. (١٩٨٥م). منادمة الاطلال ومسامرة الخيال، تحقيق: زهير الشاويش. بيروت: المكتب الاسلامي.

عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م) النعيمي. (١٩٤٨م). الدارس في تاريخ المدارس. دمشق: جعفر الحسيني ، مطبعة الترقى.

عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ابن شداد. (١٩٥٦م). الاطلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة. بيروت: سامي الدهان، (المعهد الفرنسي للدراسات العربية).

عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ابن شداد. (١٩٥٦م). الاطلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة. بيروت: شر وتحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية.

عز الدين فراج فضل. (د.ت). علماء المسلمين على الحضارة الاوربية. القاهرة: دار الفكر العربي.

عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ابن كثير. (٢٠١٠م). البداية والنهاية في التاريخ. دمشق: ط٢، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.

قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) اليونيني. (١٩٥٤م). نيل مرآة الزمان. يدر آباد الدكن - الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

ماهر عبد القادر محمد علي. (١٩٩٧). الطب العربي. رؤية ابستمولوجية. بيروت: دار النهضة العربية.

محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي. (١٨٨٨م). تاج العروس من جواهر القاموس. القاهرة: المطبعة الخيرية.

محمد بن شاکر بن احمد بن عبد الرحمن (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ابن شاکر الکتبی. (د.ت). فوات
الوفیات والذیل علیها، تحقیق: د. احسان عباس. بیروت: دار صادر.

محمد کرد علي. (١٩٨٧م). خطط الشام ط٣. دمشق: مكتبة النوري.

مؤمن انيس عبدالله البابا. (٢٠٠٩م). البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية.
الجامعة الإسلامية – غزة – كلية الآداب، رسالة ماجستير غير منشورة.

ناصر بن محم دعلي الحازمي. (٢٠٠٦م). الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب
الصليبية. ام القرى: أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة ام القرى، كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية.

